

الفصل السادس

ما يستحق المعرفة

تأسست هاي تك هاي High Tech High بالقرب من سان دييجو، كاليفورنيا، عام 2000م، بوصفها مدرسة تشارتر ثانوية تم تصميمها لتشمل تعليمًا تطبيقيًا وأكاديميًا، وهي الآن مجموعة من خمس مدارس ثانوية، وأربع مدارس متوسطة، وثلاث مدارس ابتدائية تخدم أكثر من خمسة آلاف طالب كل عام⁽¹⁾، ويختلف اليوم الدراسي في هاي تك هاي - إلى حد بعيد - عن اليوم الدراسي في معظم المدارس؛ فمدارس هاي تك هاي تبني منهجها الدراسي حول التعلم القائم على المشروعات؛ يقول معلم الفنون جيف روبن: «يسير التعلم القائم على المشروعات كالاتي: تُحدّد ماذا تريد أن يتعلّمه الطلاب - يمكن أن تكون موضوعات مقنّنة أو موضوعات من ابتكارك - ثم تنشئ مشروعاً، وتضع تفاصيل المحتوى داخل المشروع⁽²⁾.

صاغ لاري روزنستوك Larry Rosenstock وهو المدير المؤسس لمدارس هاي تك هاي الأمر كالاتي: أنت تأخذ منهجية تك التي هي أداء جماعي، وتعليم جماعي، وتجريبي وتطبيقي واستكشافي ومحتوى التعليم الأكاديمي معرفة القراءة والكتابة، والرياضيات، والعلوم الإنسانية، وكل ما يحتاج الطفل معرفته، وتحاول أن تزواج بين أسلوب تدريس التكنولوجيا والمحتوى الأكاديمي.

يفطي الطلاب المنهج الدراسي كاملاً بفاعلية لكنهم يدمجون كل علم في الآخر؛ على سبيل المثال يمكن عمل توليفة من الفن وعلم الأحياء، أو بين العلوم الإنسانية والرياضيات. ينشر الطلاب نصوصاً، وينتجون أفلاماً وثائقية، وينشئون مشروعات كثيرة متنوعة، ويمكن أن يتعلموا شيئاً عن النظم البيئية، بالإضافة إلى فن التصوير وتصميم الجرافيك، عن طريق

تأليف ونشر كتاب في علم بيئة عن خليج سان دييجو، بالإضافة إلى ذلك فهم يأخذون ما يعملونه إلى العالم الحقيقي، وقيمون مشروعات تخدم مجتمعهم المحلي وما يحيط به، ومؤخرًا أنتج أحد الأقسام فيها، وكان قد اختص بشريط ترميز الحمض النووي، أداة تستخدم في الأسواق الإفريقية، لاكتشاف ما إذا كانت اللحوم مأخوذة من صيد محظور قانونًا أم لا.

وعلى عكس معظم المدارس، لا يتكدر الطلاب في الممرات كل أربعين دقيقة لتغيير الحصة لدراسة مواد مختلفة. وتقسّم هاي تك هاي اليوم المدرسيّ إلى مُدّد زمنية عددها أقل، والهدف من ذلك هو إتاحة خبرة مستدامة وغامرة في مختلف أنواع المشروعات؛ قال لي لاري: لا توجد أجراس، فإذا أردت الذهاب إلى دورة المياه، فاذهب، ولا يوجد نظام مخاطبة عام، وهناك عمل كثير مستمر، والأمر يشبه تعرية المادة وليس تغطيتها، والقيام بعمل ميداني، وليس استظهار كلمات علم الأحياء، ويقضي أطفالنا مدد تدريب في القطاعين العام والخاص؛ إنه نظام فضفاض لكنه مُحكم بصورة مختلفة.

«يعمل الطلاب مع المعلمين الذين يعملون في فرق، ونحن لا نتنقل من مادة إلى مادة كثيرًا؛ فأنت تصنع وتنشئ أشياء عدّة، وتتوقع أن تعرض أعمالك للجمهور بصورة منتظمة إلى حد ما، وتقف لتقدم عرضًا بصورة متكرّرة؛ لأبد أنك تستمتع».

إن تنظيم المنهج الدراسي بهذه الطريقة التي تختلف اختلافًا تامًا عن معظم المدارس الثانوية، يتطلب ضمّ مجموعات عدّة، ومنها أولياء الأمور الذين لا ينحازون مباشرة إلى منهج مدارس هاي تك هاي. «عندما افتتحت مدرسة هاي تك هاي لأول مرّة، كان بعض أولياء الأمور يرتابون في أسلوبنا، لكنهم كانوا يقولون: إنهم لن يستطيعوا إخراج أطفالهم من المدرسة؛ لأنهم يحبون المجيء إليها جدًّا، ثم بدأ طلابنا يلتحقون بكليات مرموقة».

يلتحق طلاب هاي تك هاي كلهم تقريبًا بالجامعة، ويلتحق 7% منهم بكليات مدة الدراسة بها أربع سنوات. «إن أعداد من أتموا المرحلة الجامعية من طلابنا جيدة للغاية، وأعرف أن ثمة من يقول: إنه لا حاجة إلى أن يلتحق الناس بالجامعة كلهم، وأنتهم ذلك؛ فلاعبو الدوري الأمريكي للمحترفين لا يلتحقون بالجامعات، وكذلك نجوم الروك، والمبرمجون العباقر، وفرضيتنا هي أن حتى هؤلاء الأطفال الذين قد لا يلتحقون بالجامعة، يتلقون خدمة أفضل إذا لم يفصلوا عن أولئك الأطفال الذين يلتحقون ببرامج ستعدّهم ليلتحقوا بالجامعة».

أكثر من نصف هؤلاء الملتحقين بالجامعة هم أول جيل في عائلاتهم يلتحق بالتعليم العالي؛ ذلك أن هاي تك هاي تضيف ميزة خفض الفروق بين الطبقات الاجتماعية؛ فهي تختار طلابها من خلال يانصيب أعمى، وتسدُّ النقص في تعداد المدرسة خلال المُدد الانتقالية -من المدرسة الابتدائية إلى المتوسطة ومن المتوسطة إلى الثانوية- عن طريق الاختيار بالرمز البريدي غير الممثل تمثيلاً كاملاً.

قال لاري: برغم أن البيداغوجيا هي هدفنا الأول، أعتقد أن ما يفوقها في الأولوية هو دمج الطبقات الاجتماعية؛ فالدولة فاشلة فيما يتعلق برأس المال الاجتماعي، وتعاني سوء تنبؤ منهجياً؛ نحن ن فشل في التنبؤ بمن يمكنه، ومن لا يمكنه، أن يتغلب على الأمور التي تتعلق بالعرق والوضع الاجتماعي الاقتصادي والنوع. وحالياً منحتنا الاختبارات المقتنة منهجية أخرى لسوء التنبؤ، وما نحاول فعله هو ألا ننزلق إلى فخ سوء التنبؤ، وأن نصل إلى سرعة الانطلاق، كما نحب أن نسميها، مع أطفال لم نعتد أن نحقق ذلك معهم... وعندما تعمل مع هؤلاء الأطفال، تدرك كم هم أذكاء كلهم، عليك فقط أن تصل إليهم جميعاً بطرائق مختلفة.

إن الوصول إلى كل طالب هو بالضبط المحك في تغيير التعليم، فكما رأينا، هذا يعني التركيز على جودة التعلم والتدريس، وهو يعني أيضاً وجود نوع من المنهج الدراسي يجعل ذلك ممكناً.

ما وظيفة المنهج الدراسي؟

المنهج الدراسي إطار عمل لما ينبغي أن يعرفه الطلاب ويفهموه ويستطيعوا عمله، والمناهج في معظم المدارس بعضها إجباري، وبعضها اختياري، وبعضها تطوعي مثل النوادي وبرامج ما بعد المدرسة، وثمة اختلاف بين المنهج الرسمي والمنهج غير الرسمي؛ فالمنهج الرسمي هو الجزء الإخباري الذي يشمل ما يقاس ويختبر، والمنهج غير الرسمي هو أي نشاط تطوعي. يكونُ الجزآن الرسمي وغير الرسمي معاً المنهج بصورة كلية.

الهدف الواضح هو عمل خريطة لما يقصد أن يتعلمه الطلاب، لكنَّ للمنهج هدفاً آخر، فالمدارس تحتاج المنهج الدراسي حتى يمكنها تحديد كيف تستخدم مواردها، وكيف تنظم استخدام كل فرد للوقت والمساحة، وفي المعتاد تقسم المدارس اليوم الدراسي إلى مُدد دراسية، وتخصصها لكل مادة من المواد الدراسية، وقد تبدو هذه مسألة بديهية، فلا بد من تنظيم

اليوم الدراسي، علاوة على أن الطلاب والمعلمين يحتاجون إلى معرفة ماذا سيحدث ومتى وأين. ومن حيث المبدأ، ينبغي أن يصوغ المنهج الدراسي الجدول المدرسي، لكن في التطبيق يحدث العكس غالباً.

عندما كانت ابنتنا في الصف التاسع، أرادت أن تواصل دراسة الرقص، لكنها لم تستطع؛ بسبب تعارض في الجدول، وعندما كنت في الرابعة عشرة من عمري اضطررت إلى إلغاء الرسم؛ لأنه كان يتعارض مع اللغة الألمانية التي كانت المدرسة تشعر أن دراستها أهم بالنسبة إليّ، ولم تكن كذلك، لكن هذا ما حدث، وقد مرّ كثير من طلاب المدرسة الثانوية بتجارب مشابهة، فحببنا لو كان الجدول أكثر مرونة، وأكثر شخصنة، فالأرجح أنه سييسر نوع المنهج الدراسي الدينامي الذي يحتاجه الطلاب حاليّاً.

خلاف دائم

من أشرس الجدالات في التعليم الجدول حول ما يجب تدريسه ومن يقرر ذلك. ليس مقصدي هنا هو الدخول في تفاصيل محتوى المنهج الدراسي: الحقائق والأفكار والمهارات وغيرها من المواد التي ينبغي تغطيتها في علوم مختلفة، فهذا موضوع كتاب آخر أو مكتبة برمتها، كما بين إي دي هيرش⁽³⁾ E. D. Hirsch، وآخرون، ومنهم الحكومات من الأنواع كافة، في محاولاتهم لعمل ذلك وحسب. وتشير كل محاولة من هذه المحاولات خلافاً، فكما أرى الأمر تتعلق أكثر الخلافات سخونة في التعليم في الولايات المتحدة، بطرح المعايير الأساسية العامة التي تضع محتوى المنهج الدراسي الأساسي لمعرفة القراءة والكتابة والحساب والعلوم؛ فهي بحسب مهندسي المعايير، صُممت لتحديد «المعرفة والمهارات التي ينبغي أن يكتسبها الطلاب عبر سنوات دراستهم من الروضة إلى الصف الثاني عشر، حتى يتخرجوا في المدرسة الثانوية وقد أعدوا للنجاح في وظائف المبتدئين، ومقررات الكليات الأكاديمية التمهيدية وبرامج تدريب القوى العاملة، وهي على اطلاع بأعلى المعايير وأكثرها تأثيراً في كل ولاية من الولايات المتحدة وفي الدول عبر أنحاء العالم».

إن المعايير الأساسية العامة أيّاً كانت مزيّاتها الأصلية -الجوهرية- فإنها تقسم الدولة إلى صانعي قرار ومعلمين وأولياء أمور، ومجتمعات كاملة في الدولة، بعد تمرد الدولة ضدها بوصفها جسراً بعيداً تماماً في مسؤولية التعليم الفيدرالية المعروفة.

إن هدي هنا أكثر اعتدالاً، لكنني أظن أنه لا يقل أهمية؛ إنه النظر إلى ما يهدف المنهج ككل إلى تحقيقه في علاقته بالأغراض الأربعة التي كتبت عنها سابقاً، وإلى السؤال عن نوع المنهج الذي يجب أن يقرر، حتى لو كانت المسألة خلافية؛ فالمناقشات حول أي المواد ينبغي أن تُدرس في المدارس تثار حول التعليم منذ أيامه الأولى، وقد تغير التعليم تغيراً جذرياً منذ ذلك الحين.

في روما القديمة، كان التعليم يقوم على الفنون أو العلوم الحرة السبعة. قواعد اللغة، البنَى الصورية للغة، والبلاغة، والتعبير الإنشائي، وعرض المناقشات، المنطق الجدلي الصوري؛ والرياضيات والهندسة والموسيقى والفلك، وبقي هذا التصور مهيمناً على المنهج الدراسي في أوروبا حتى العصور الوسطى وخلالها.

وفي عصر النهضة، في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، أضافت بعض المدارس مواد أخرى من بينها التهجئة والدراما، ودعت إلى طرائق تدريس وتعلم أشد عملية، وبدأت بعض المدارس تدرس الموسيقى والرقص والرسم والألعاب الرياضية، ومن بينها مصارعة الأيدي، المبارزة، والرماية وكرة اليد، وكرة القدم، وفي القرن الثامن عشر، بدأت بعض المدارس تُدخل التاريخ والجغرافيا والرياضيات، واللغات الأجنبية في المنهج الدراسي. قوبل ذلك بمقاومة قوية من أنصار المدرسة التقليدية، الذين كانوا يرون أن التعليم التقليدي له الأهمية الكبرى، واستمرت هيمنة المنهج التقليدي - إلى حد بعيد - على التعليم في أوروبا حتى منتصف القرن التاسع عشر⁽⁴⁾.

بعد ذلك، أعادت ثلاثة تغييرات اجتماعية مزلزلة تشكيل المنهج الدراسي؛ كان التأثير المتزايد للعلوم والتكنولوجيا يغير المناخ الفكري، وكان انتشار التصنيع يغير الساحة الاقتصادية، وكان العلم الناشئ حديثاً؛ علم النفس يطرح نظريات جديدة عن الذكاء والتعلم، وتحدثت هذه التصورات بقوة أفكاراً ثابتة عن فوائد التعليم التقليدي الصارم⁽⁵⁾.

بينما توسع التعليم الجماهيري، بدأ يتشكل نوع جديد من المناهج المدرسية، وما يزال يهيمن على التعليم حالياً⁽⁶⁾؛ فمن المفيد التعامل مع المنهج الدراسي من ناحية البنية والمحتوى والصياغة والروح العامة Structure, Content, Mode & Ethos.

أعني بالبنية التصور الذي يحكم المنهج المدرسي ككل، وكذلك العلاقات بين عناصره المختلفة؛ فالمناهج المدرسية القومية تتخذ عادة صورة مواد منفصلة: الرياضيات، العلوم،

التاريخ، وغيرها. وعادة ما توجد تراتبية بين هذه المواد، لا سيما في المدارس الثانوية، يمكنك تعرفها بحسب مقدار الوقت والموارد المخصصة لها، وما إذا كانت إجبارية أو اختيارية، وهل تقام لها الاختبارات رسمياً أم لا؟

على القمة نجد الرياضيات واللغات والعلوم، تليها العلوم الإنسانية، والتاريخ والجغرافيا، وأحياناً الدراسات الاجتماعية والدين، وفي الأسفل توجد الفنون والتربية البدنية، ويقصد بالفنون عادة الموسيقى والفنون المرئية، وتُعدُّ الدراما - إن كان لها نصيب في المنهج- أدنى الفنون، يليها الرقص الذي نادراً ما يدرّس في معظم النظم.

أما المحتوى فأقصد به المادة التي ينبغي تعلمها، إذ بسبب الانشغال بالتعلم الأكاديمي، يكون التركيز دائماً على النظرية والتحليل وليس على المهارات العملية أو المهنية.

أقصد بالأسلوب مدى تفاعل الطلاب مع المنهج: سواء كان قائماً على التعلم المكتبي أو التعلم القائم على المشروعات، وسواء كان فردياً أو جماعياً، في معظم النظم يكون التركيز على المهام الأكاديمية المكتبية، وعلى الأنشطة الفردية لا الجماعية.

أقصد بالروح العامة الجو السائد والسمات المميزة لعملية التعليم؛ أي ما يخص تلك الرسائل الضمنية عن أولويات المنهج وقيمه، وأحياناً تسمى هذه الجوانب في التعليم بالمنهج الخفي، والروح العامة المهيمنة على حركة المعايير تجعل المدرسة تشبه سباق الحواجز للخيل، الذي هدفه إزالة عقبات الاختبارات والقياسات التي يوجد بها دائماً فائزون وخاسرون، وكما رأينا، يعتقد طلاب كثيرون أن المدرسة لهذا السبب مملة أو كئيبة؛ أي إنها تجربة يتحملونها ولا يستمتعون بها، ولنجيب عن ذلك ينبغي أن نستحضر أغراض التعليم الأساسية الأربعة التي عرضتها في الفصل الأول، وهي: الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والشخصية.

من أين نبدأ؟

يقوم المنهج الدراسي التقليدي على مجموعة من المواد المنفصلة التي يُعتقد أن أهميتها لا تحتاج إلى إثبات، وهذه إحدى المشكلات؛ إذ إن نقطة البداية الصحيحة هي أن نسأل عما ينبغي أن يعرفه الطلاب، ويستطيعون فعله نتيجة لذلك، وقد أدى هذا السؤال إلى محاولات عدة لإعادة صياغة المنهج الدراسي على أساس الإمكانيات، وأظن أنها فكرة جيدة؛ أرى أن

الأغراض الأساسية الأربعة تشير إلى ثمانية إمكانات أساسية، ينبغي على المدارس أن تساعد الطلاب على اكتسابها، إذا أرادت أن ينجح الطلاب في حياتهم. يرتبط كل إمكان بالأغراض الأربعة، وسنرى أن الإمكانيات الثمانية تبدأ كلها بحرف (C) في اللغة الإنجليزية، وليس لهذا دلالة في ذاته، سوى أنها تساعدني على تذكرها كما أرجو أن تساعدكم أيضاً. وهي كالآتي:

الفضول Curiosity أي القدرة على طرح الأسئلة واستكشاف كيف يعمل العالم؛ الإنجاز الإنساني في كل مجال تدفعه الرغبة في الاستكشاف والاختبار والتنقيب وتعرّف ما يجري، والسؤال عن طريقة عمل الأشياء، والتساؤل لماذا، وماذا لو؟

يمتلك الأطفال الصغار شهيةً مفتوحة دائماً لاستكشاف كل ما يجذب اهتمامهم، فإذا استثير فضولهم سيتعلمون بأنفسهم، من بعضهم ومن أي مصدر تقع أياديهم عليه، وإن معرفة طريقة استثارة فضول الطلاب وتزكيته موهبة المعلمين العظماء كلهم، فهم يفعلون ذلك بتشجيع الطلاب على التقصي والبحث بأنفسهم، عن طريق طرح أسئلة، وليس تقديم إجابات لها وحسب، وبتحديدهم في أن يعمقوا تفكيرهم عن طريق تدقيق النظر.

قد يكون الفضول، لبعضنا بشأن بعض الأمور، قصير الأجل، سريع الإشباع، وقد يصير عند غيرنا شغفاً دائماً يكرسون له حياتهم الشخصية والمهنية بأسرها. وعلى أي حال، فإن حاسة الفضول الدائم من أعظم الهبات التي يمكن أن تمنحها المدارس طلابها.

الإبداع Creativity أي القدرة على توليد أفكار جديدة وتطبيقها عملياً.

كل فرد منا يصنع حياته بوساطة ما يكون من زوايا نظر، وما يقرر من اختيارات، وما يكتشف ويطور من مواهب. تنمية القدرات الإبداعية لدى الصغار أمرٌ لازم للوفاء بأغراض التعليم الأربعة، والاتصاف بالإبداع هو جوهر الكائن البشري، وقلب كل تقدم، ومن المفارقات أن تكون قوانا الإبداعية سبب هلاكنا؛ إذ إن كثيراً من التحديات التي يواجهها الجنس البشري هي نتاج إبداعه؛ في الصراعات بين الثقافات وإساءتنا الجماعية للبيئة الطبيعية. في هذا الموقف، ليست قرود الليمور أو الدلافين بخيالها الضيق هي ما يعرّض المناخ للخطر بسبب اختيارها لطريقة حياتها، بل نحن المسؤولون بسبب ثراء خيالنا وقوانا الإبداعية.

وليس الحل الآن في كبح إبداعنا بل في غرسه على نحو أكثر جدية مع تحديد أوضح للغاية، ومع تعقّد التحديات التي يواجهها الطلاب، لا بد للمدارس أن تساعدكم على تنمية قدراتهم الفريدة على الفكر والعمل الإبداعي.

النقد Criticism أي القدرة على تحليل المعلومات والأفكار لتكوين أطروحات وأحكام مدروسة.

القدرة على التفكير بوضوح والنظر المنطقي في الأطروحات، ووزن الدليل بلا انفعال من أهم علامات الذكاء الإنساني، ومن بين الدروس التي نتعلمها من التاريخ كلها، هذا الدرس هو - بلا شك - الأصعب في التطبيق.

يحتاج التفكير الناقد شيئاً يتجاوز المنطق الصوري؛ فهو يقتضي تأويل القصد، وفهم السياق، وقياس القيم والمشاعر الخفية، وبيان الدوافع، واستكشاف التحيز، وتقديم خلاصات موجزة في أنسب صورة ممكنة، ويلزم لكل هذا ممارسة وتدريب.

كان التفكير الناقد مهماً دائماً للتطور الإنساني، وتزيد أهميته كل يوم؛ فنحن الآن نغمرنا، من كل اتجاه، فيضان المعلومات والآراء والأفكار ويستولي على انتباهنا؛ فالإنترنت - مثلاً - هو أكثر مصادر المعلومات التي اخترعتها البشرية حضوراً، وهو ينمو على نحو هائل، وكذلك أخطار الارتباك والتشويش.

تحمل الثورة الرقمية فوائد ضخمة للتعليم لكل الصغار، وفي الوقت نفسه، لم تكن الحاجة إلى التمييز بين الحقيقة والرأي، والمعقول وغير المعقول، والأمانة والخداع، بالنسبة إلى الصغار أعظم قط من وقتنا هذا؛ ينبغي أن يكون التفكير الناقد الواضح قلب كل مجال علمي في المدرسة، ويصبح عادة متأصلة خارجها أيضاً.

التواصل Communication أي القدرة على التعبير بوضوح وثقة عن الأفكار والمشاعر بوسائل وصور عدّة، والطلاقة في القراءة والكتابة والرياضيات ضرورات راسخة في التعليم، وينبغي لها أن تكون كذلك، وما لا يقل أهمية عنها هو تنمية التعبير الواضح الواثق، وهو ما يسمى أحياناً (الخطابة)⁽⁷⁾. ومن الأخطاء التي يؤسف لها أن تنمية مهارات اللغة المنطوقة مهملّة في المدارس.

إن التواصل اللفظي لا يتعلق فقط بالمعاني الحرفية؛ بل بتقدير المجاز والقياس والإحالة، وغيرها من الصور الشعرية والبلاغية للغة، ولا يتعلق التواصل بالكلمات والأرقام فقط، فبعض الأفكار لا يمكن التعبير عنها على نحو سليم بهذه الطرائق وحدها؛ فنحن نفكر كذلك باستخدام الأصوات والصور والحركة والإيماءة، وهذا هو ما يبرز قدراتنا في الموسيقى، والفنون البصرية، والرقص، والمسرح بكل صوره. وإن القدرة على تشكيل أفكارنا، ومشاعرنا وتوصيلها بهذه الطرائق كلها، أمر جوهري لسعادة الفرد والإنجاز الجماعي.

التعاون Collaboration أي القدرة على العمل البناء مع الآخرين، نحن مخلوقات اجتماعية، نعيش ونتعلم وسط الآخرين، والقدرة على العمل مع الآخرين خارج المدرسة لازمة لقوة المجتمعات، ومجابهة التحديات التي تواجهنا جميعاً، ومع ذلك ففي مدارس كثيرة، يكون أغلب عمل الصغار فردياً؛ أي إنهم يتعلمون في مجموعات وليس بوصفهم مجموعات.

إن تعزيز قدرة الطلاب على العمل معاً، من شأنه تعزيز تقدير الذات، واستثارة الفضول، وشحن الإبداع، وزيادة التحصيل، وتمتية السلوك الاجتماعي الإيجابي⁽⁸⁾. فبوساطة العمل الجماعي، يتعلم الطلاب التعاون مع الآخرين في حل المشكلات وتحقيق الأهداف المشتركة، والاستعانة بنقاط القوة لدى كل منهم، وتقليص نقاط الضعف، والتشارك في الأفكار وتطويرها، ويتعلمون أيضاً التفاوض، وحسم الخلافات، ودعم الحلول التي يتفق عليها.

بوساطة العمل معاً داخل المدارس، يتمكن الصغار من فهم الحقيقة الجوهرية التي عبّرت عنها هيلين كيلر بقولها: «ننجز وحدنا القليل جداً، ومعاً ننجز الكثير».

التعاطف Compassion أي القدرة على مشاركة الآخرين مشاعرهم.

والتصرف وفقاً لذلك، التقمص هو تمثل مشاعر الآخرين، لا سيما معاناتهم، والتعاطف أساسه التقمص، وهو يبدأ بأن نعي في أنفسنا ما لدى الآخرين من مشاعر، وما نشعر به في الظروف نفسها، ويتجاوز التعاطف مشاركة الآخرين مشاعرهم؛ فهو التعبير الحي عن (القاعدة الذهبية) التي تقول: عامل الناس كما تحب أن يعاملوك، والتعاطف هو ممارسة التقمص.

تكمّن كثير من المشكلات التي يواجهها الصغار، في غياب التعاطف؛ فالتمر والعنف وإيذاء المشاعر والإقصاء الاجتماعي وصور التحامل؛ بسبب العرق أو الثقافة أو الاتجاه الجنسي، كلها مصدرها غياب التعاطف، وفي عالم الكبار الأوسع، فإن ما يشعل الصراعات الثقافية كافة، والانقسامات الاجتماعية القاتلة، ويؤججها، هو غياب التعاطف عنها.

مع زيادة الاعتماد المتبادل بين الناس في عالمنا، يصير غرس التعاطف ضرورة أخلاقية وعملية، كما أنه ضرورة روحية، فممارسة التعاطف هو أصدق تعبير عن إنسانيتنا المشتركة، بالإضافة إلى أنه مصدر غني للسعادة داخلنا وعند الآخرين. في المدارس - كما في غيرها من الأماكن - ينبغي ممارسة التعاطف وليس الاكتفاء بالدعوة الشفهية إليه.

الطمأنينة Composure أي القدرة على التواصل مع حياة المشاعر الداخلية وتنمية الشعور بالانسجام الشخصي والتوازن.

نحن نعيش في عالمين: عالم داخلنا، والعالم من حولنا. والعالم الخارجي هو أكثر ما يهتم به المنهج المدرسي القائم على المعايير، ولا يهتم، إلا قليلاً، بمساعدة الصغار على سبر أغوار عالمهم الداخلي. إن سلوكنا في العالم الذي يحيط بنا يتأثر تأثراً عميقاً برؤيتنا لأنفسنا، وما نشعر به تجاهها. وكما قالت الكاتبة أناييز نين ذات مرة: أنا لا أرى العالم كما هو، بل أراه كما أنا.

يعاني كثير من الصغار في المدرسة الضغط والتوتر والاكتئاب، ويرى بعض الدارسين أن المدرسة نفسها هي السبب في هذه المشاعر، ويرى غيرهم أن حياتهم الخارجية هي السبب، وفي الأحوال كافة يمكن أن تؤدي هذه المشاعر إلى الملل، وفقدان الاهتمام، بل وأسوأ من ذلك، وتستطيع المدارس أن تخفف هذه الآثار عن طريق تغيير ثقافتها بالطرائق التي ناقشناها، ويمكنها أن تتيح للطالب الوقت والسبل لاستكشاف عوامله الداخلية بوساطة الممارسة اليومية للتأمل، وإن عدد المدارس التي تفعل هذا الآن في ازدياد، ويجد كل من الطلاب وهيئة التدريس منافع شخصية وجماعية من الممارسة المنتظمة لتربية التأمل الذهني والوجداني والطمأنينة.

المواطنة Citizenship أي القدرة على التواصل البناء مع المجتمع والمشاركة في العمليات التي تحافظ على بقائه.

تعتمد المجتمعات الديمقراطية على المشاركة الفعالة للمواطنين الواعين في إدارتها وقيادتها، وحتى يتم ذلك من الضروري أن يعرف الصغار قبل أن ينهوا المدرسة كيف يعمل المجتمع، وتحديدًا كيف تعمل النظم القانونية والاقتصادية والسياسية وتؤثر فيهم؛ المواطنون النشطاء أناس يعون حقوقهم، ومسؤولياتهم، ويعرفون كيف تعمل النظم الاجتماعية والسياسية، ويهتمون بصالح الآخرين، ويستطيعون التعبير عن آرائهم ومواقفهم، وقادرون على التأثير في العالم، وينشطون في العمل داخل مجتمعاتهم، ويتحملون مسؤولية أفعالهم⁽⁹⁾.

ليس الغرض من تعليم المواطنة الدعوة إلى الإذعان والقبول بالوضع الراهن؛ بل تعزيز الحاجة إلى تحقيق المساواة في الحقوق، وقيمة الاختلاف، والحاجة إلى الموازنة بين الحريات الشخصية وحقوق الآخرين للعيش في سلام.

تحتاج مهارات المواطنة إلى تعليم وممارسة، وتحتاج أيضًا إلى تجديد متواصل، وربما كان هذا ما يعنيه جون ديوي عندما قال: لا بد للديموقراطية أن تولد من جديد في كل جيل، والتعليم هو قابليتها. وحتى يكون ذلك، يقتضي الأمر ألا تتوقف المدارس عند مجرد الحديث عن المواطنة؛ فلا بد للمدارس من أن تجسدها عملياً في طريقة إدارتها، بالإضافة إلى أن هذا ضرورة في كل ما ذكرنا من إمكانات.

لا تظهر هذه الإمكانيات بصورة متتابعة، على مراحل واضحة، في الوقت الذي يقضيه الطالب في المدرسة، بل ينبغي أن تتطور من بداية التعليم، وتمارس وتصلح طوال حياتهم مع زيادة مستوى الثقة والتعقيد؛ فالطلاب الذين يتخرجون في المدرسة، وهم يشعرون بالثقة في هذه الأمور الثمانية، سيكونون مهيين للمشاركة في التحديات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والشخصية التي -لا محالة- سيواجهونها في حياتهم، فما صورة المنهج المدرسي الذي تحتاجه المدارس لتنمية هذه الإمكانيات؟

بنية مقترحة

كما ذكرت في الفصل الرابع، يشمل الذكاء البشري، ويستوعب أكثر بكثير من مجرد القدرة الأكاديمية، وللأسباب كلها -التي ذكرتها هناك- وجدتُ فكرة المواد الأكاديمية التقليدية محدّدة للغاية بوصفها أساساً لتخطيط المنهج المدرسي. وتوحي المواد المدرسية أنها مجالات

معرفة منفصلة، ولها حدود واضحة ثابتة. وعند الممارسة، تواصل المعرفة، بصورها كافة، تطوُّرها خارج المدرسة، فتتدخل الحدود بين المواد المختلفة باستمرار.

ثمة مشكلة أخرى؛ فمن ناحية، لا يوجد ما يسمى مادة أكاديمية، يوجد فقط طرائق أكاديمية للنظر إلى الأشياء، والعمل الأكاديمي أحد أشكال التحليل، يمكن تطبيقه على أي شيء: اللغات الأجنبية أو الفيزياء العملية، الشعر أو علم الأحياء. وقد تطورت المدارس في التركيز الشديد على هذا النوع من الدراسة، لكن ليست هذه المواد هي المتأصلة أكاديمياً، وإنما كيفية النظر إليها.

عند بناء المنهج المدرسي، أفضل كثيراً فكرة المجالات العلمية. والعلم خليط من النظرية والتطبيق؛ فالرياضيات -على سبيل المثال- تركيبة من الطرائق والعمليات والمعرفة الإدراكية. والطالب لا يتعلم شيئاً عن علم الرياضيات فقط، بل يعرف أيضاً كيف يحل الرياضيات. ينطبق ذلك على المجالات العلمية التي تتضمن مهارات بدنية والتحكم في المواد الخام والأدوات، ومنها الموسيقى، والفنون، والتصميم، والهندسة، والتكنولوجيا، والمسرح والرقص، وما إلى ذلك.

إن النظر إلى المنهج الدراسي بحسابه فروعاً معرفية يفتح إمكانات أنشطة تداخل المجالات العلمية كلها -مثلما يفعلون في هاي تك هاي- حيث يمكن بحث القضايا والأفكار بصورة جماعية من زوايا مختلفة، استناداً إلى مفاهيم ومهارات علوم متعددة، وثمة أمور كثيرة تحدث في العالم خارج المدرسة بها علوم بينية بصفة أساسية؛ إذن: ما المجالات العلمية التي ينبغي أن يشتمل عليها المنهج المدرسي؟

من وجهة نظري، ينبغي أن يعطي المنهج المدرسي المتوازن مكانة متماثلة وموارد للمجالات العلمية الآتية: الفنون، العلوم الإنسانية، فنون اللغة، الرياضيات، التربية البدنية، والعلوم الطبيعية؛ فكل منها يخاطب مجالات أساسية في الذكاء، والمعرفة الثقافية، والتنمية الشخصية، وكذلك يوفر إطار عمل لما ينبغي أن يتعلمه الطلاب كافة بصفة عامة، ويتيح التوازن السليم في هذه المجالات العلمية للمدارس تلبية مواطن قوة الشخصية لدى الطلاب ورغباتهم بوصفهم أفراداً.

الفنون

تتعلق الفنون بطبيعة الخبرات الإنسانية؛ فعن طريق الموسيقى والرقص والفنون البصرية والدراما، وما شابه، نعطي صورةً لشاعرنا وأفكارنا عن أنفسنا، وكيف نواجه العالم من حولنا. وتعلم الفنون نفسها أو تعلم شيء عنها أساسي للتنمية الفكرية؛ فالفنون توضح تنوع الذكاء، وتوفر طرائق عملية للارتقاء به، والفنون من أكثر وسائل التعبير عن الثقافة الإنسانية حيوية. ولكي نفهم خبرات الثقافات الأخرى، نحتاج إلى التعامل مع موسيقاها، وفنونها البصرية، وأنواع رقصها، والفنون اللفظية وفنون الأداء لديها؛ فالموسيقى والصور والقصائد الشعرية والمسرحيات هي مظاهر بعض مواهبنا ورغباتنا الدفينة، ومشاركة الفنون مع الآخرين هي أشد الطرائق النابضة بالحياة لرؤية العالم كما يرونه والشعور به كما يشعرون.

العلوم الإنسانية

تهتم العلوم الإنسانية بدراسة الثقافة الإنسانية، وتشمل التاريخ ودراسة اللغات والفلسفة والتربية الدينية وفروع الجغرافيا والدراسات الاجتماعية، ويوسع تعليم العلوم الإنسانية فهم الطلاب ويعمقه، للعالم من حولنا بتنوعه وتعقيده وتقاليد، ويهدف إلى توسيع معرفتنا بما نشترك فيه مع غيرنا من البشر، ومنهم هؤلاء الذين انتهى زمانهم وزالت ثقافتهم، وتنمية الوعي الناقد في عصورنا وثقافتنا.

فنون اللغة

اللغة المنطوقة إحدى السمات المميزة للذكاء البشري، فعندما يتعلم الطفل الكلام، يتعلم كيف يفكر، ويجادل، ويتواصل. ويتعلم الأطفال أيضاً القيم الثقافية وأساليب التفكير المتضمنة في لغاتهم، ويشمل تعلم اللغة في المدارس الخطابة والمعرفة القراءة والكتابة والأدب، والخطابة هي القدرة على التحدث بوضوح، وبطلاقة، وبنقطة، أما معرفة القراءة والكتابة فهي إتقان مهارات القراءة والكتابة وتقاليد، وأما الأدب فهو أحد أهم الأشكال الفنية الإنسانية، ودراسة الفنون الأدبية وممارستها تمنح الطلاب تواصلًا حميمًا مع رؤى ومشاعر لحيوات أخرى وعصورها وتقاليدها.

الرياضيات

الرياضيات هي العلم المجرد بالأرقام والأحجام والكميات والمساحات والعلاقة بينها، ويرجع تاريخ نظم الرياضيات إلى بدايات الحضارة البشرية، وهي من بين أعظم إنجازات الثقافة الإنسانية. والحساب جوهرى في حد ذاته، وهو أيضاً بوابة الدخول إلى تعلم علوم عدّة، وللرياضيات بصورها المتعددة مكانٌ أساسيٌّ في تطبيق العلوم كافة، وفي التكنولوجيا، وفي الفنون، وفي كثير من جوانب الحياة اليومية.

التربية البدنية

لسنا عقولاً تسير على قدمين؛ بداخلنا كائن حي، وثمة صلة وثيقة بين سلامتينا العقلية والوجدانية وسلامتنا الجسدية. والتربية البدنية والألعاب الرياضية راسخة في شتى التقاليد والممارسات الثقافية، وتثير مشاعر وقيماً قوية، في ما يتعلق بالألعاب نفسها، وبوساطة معنى النشاط الجماعي والانتماء الذي يمكن أن يولده، وهي توفر فرصاً قويةً لتنمية المهارات الفردية والجماعية، والتشارك في النجاح والإخفاق في بيئة محكمة. وللتربية البدنية، بهذه الطرائق وغيرها، أدوار أساسية مساوية للمجالات العلمية الأخرى في المسير المتوازن نحو التربية الإبداعية والثقافية.

العلوم

العلم هو البحث المنهجي لفهم العالم من حولنا؛ فالعلوم الطبيعية، ومنها الفيزياء والكيمياء والأحياء وعلوم الأرض والفلك، تركز على استكشاف ظواهر الطبيعة والتنبؤ بها، والعلوم الاجتماعية، ومنها علم النفس وعلم الاجتماع والعلوم الاقتصادية، تركز على سلوك الأفراد والمجتمعات. للتربية العلمية دور جوهرى في تعليم الطلاب كافة؛ لأن التربية العلمية تشجع على فهم الدليل، وعلى تنمية مهارات التحليل الموضوعي، فضلاً عن أنها تفتح طريقاً للفهم العلمي الحالي للعمليات التي تجري في العالم الطبيعي، والقوانين التي تحكمها. هذا يتيح فرصاً للبحث العملي والنظري الذي يمكن بوساطةها تأكيد المعرفة القائمة أو نفيها، وتزيد التربية العلمية من تقدير المفاهيم العلمية والإنجازات التي كوَّنت العالم الحديث، وتقدير أهميتها وحدودها.

تفتح فكرة المجالات العلمية باب ديناميات العمل بين العلوم وهو أساس المنهج المدرسي في مدارس مثل هاي تك هاي وغيرها، وهذه الديناميات هي ما يجعل المجالات العلمية في تحول وتطور دائمين، وهذه المجالات العلمية كلها ميادين بحث دائم الحركة خارج المدارس، وينبغي أن تكون كذلك داخل المدارس أيضاً؛ على سبيل المثال ثمة افتراض شائع بأن الفنون والعلوم على طرفي نقيض في التعليم، فيُظن أن العلوم تتعلق بالحقائق الجامدة، وبالحقيقة الموضوعية، وتتعلق الفنون بالمشاعر والإبداع والذاتية؛ يحمل هذان الافتراضان قدرًا من الحقيقة، لكنهما أقرب إلى التصور الكاريكاتيري.

في أرض الواقع، تتداخل العلوم والفنون بالطرائق كافة، وإن الفهم الحقيقي للخيال والإبداع يجعلهما جزءاً من العلم والفن بالقدر نفسه؛ فالتعلم في مجال العلوم يقتضي التعامل مع المعرفة العلمية القائمة، واستخدام مناهج البحث العلمي لاستقصاء الفروض، واستكشاف تفاعلات العلم مع غيره من المجالات بما فيها التكنولوجيا. إن الاكتشافات والنظريات العظيمة التي دفعت بالعلم إلى الإمام، تعتمد على قفزات واسعة للخيال وأصالة عملية في تصميم التجارب وتأويلها.

والفنون كذلك، صور من الممارسة شديدة الانضباط، تقتضي مهارات صعبة، وأحكام ناقدة، وحساسية ثقافية؛ تتداخل العلوم الإنسانية مع العلوم والفنون بطرائق شتى، فهي تشارك مع الفنون اهتمامها الأساسي بالبعد الإنساني للتجربة، وتشارك العلوم اهتمامها بالتحليل النظري، والدليل والتفسير.

إيجاد الأسلوب السليم

يتعلم كثير من الطلاب، على خير وجه، عندما يشتركون في عمل الأشياء على نحو نشط، ولا يتوقفون عند دراسة الأفكار المجردة؛ أي عندما يستتار فضولهم، وعندما يطرحون الأسئلة، ويكتشفون أفكاراً جديدة، ويشعرون في أنفسهم بالإثارة الموجودة في هذه المجالات العلمية. تثبت الأمثلة التي سقناها حتى الآن صدق هذا في مدارس غرينج ونورث ستار وهاي تك هاي؛ يعلق لاري روزنستوك بقوله: «إن المدارس الابتدائية هي أول من يفهم هذا على النحو الصحيح؛ فهي متعددة المجالات العلمية، وتستخدم منطقاً مختلطاً، وتسمح بصنع الأشياء وممارستها،

وهذا هو حال دراسات الدكتوراه؛ فأنت تدخل عالمها كعلامة استفهام، وتخرج منه كعلامة استفهام».

إن التعلم الفعال في أي مجال، غالباً ما يكون عملية محاولة وخطأ، أو طفرات بينها محاولات فاشلة لإيجاد حلول؛ تقع هذه الدينامية في قلب المنهج الدراسي، وهي مفتاح نجاح مدرسة هاي تك هاي: «الفضل جزء مهم من العملية، ونحن نحتفي بالفضل، فنقول: عظيم، أنت الآن تعرف أن شيئاً ما لا يصلح، ويمكنك أن تزيله من القائمة وتنتقل إلى غيره، هذا الجزء المهم في خبرة التعلم - أي التعلم الذي ينتج عن الفضل - غالباً ما يستبعد من المنهج المدرسي الأكاديمي».

أحد أبرز الابتكارات الحديثة في التدريس والتعلم، ما صار يعرف الآن بتفكير التصميم، وهذا منهج يستخدم الآن في مؤسسات كثيرة، وفي عدد متزايد من المدارس أيضاً، وهو يعتمد على الأساليب الإبداعية والتحليلية للمصممين المحترفين في تعرف المشكلات وحلها، والتفكير في منتجات وخدمات جديدة، في العادة يكون تفكير التصميم متجاوزاً لحدود المجالات العلمية، ويستلزم قدرًا عاليًا من التعاون، ومن أفضل ما يعرض لمبادئه وتطبيقاته كتاب تيم براون التغيير بالتصميم: كيف يحول تفكير التصميم المؤسسات ويلهم الابتكار Tim Brown's Change by Design: How Design Thinking Transforms Organizations and Inspires Innovation.

يوضح تفكير التصميم، وكثير من إستراتيجيات التعلم الأخرى التي عرضنا لها في هذا الكتاب، أن الفاصل الشائع في مدارسنا بين البرامج الأكاديمية والمهنية، قائم على تصور مغلوط يمكن أن يسبب كوارث، إضافة إلى أنه يهمل الطلاب أصحاب المواهب الحقيقية والحماس للتطبيق العملي للمعرفة، وينبغي أن يكون تبني هذه الدينامية في قلب المنهج الدراسي وليس على أطرافه.

تشغل أليسون وولف Alison Wolf وظيفة أستاذ لإدارة القطاع العام، بالكلية الملكية في لندن، وهي مؤلفة كتاب تقرير وولف The Wolf Report الذي هو عرض نقدي للتعليم المهني معد للحكومة البريطانية، وهي ترى فوائد جمة للتعليم المهني في إعداد الطلاب ليكونوا ناجحين، وراشدين مشاركين فعّالين، لكنها تعتقد أن هذا النوع من التعليم لا يمكن أن يزدهر إلا بأن

يُعاملُ بالقدر نفسه من الجدِّية، ولكن بطريقة مختلفة عما تتلقَّاه البرامج الأكاديمية داخل النظم المدرسية.

قالت لي الدكتورة وولف: كل ما عليك فعله هو أن تهدم الجدران، فكلما زاد عدد من لم يتبعوا المسار التقليدي بالانتقال من مدرسة إلى مدرسة حتى الجامعة -ليس على سبيل الدعوة المؤقتة، بل بحساب هذا ممارسة أصيلة- زادت مساحة التنفس داخل النظام. لا بد أن نجعل هذا جزءاً رسمياً من منهجنا المدرسي، جزءاً من المحاسبة التي يعتمد التقييم عليها، فنأخذ الناس خارج الصف، ليؤدوا أعمالاً متغيرة بطبيعتها، ومن ثمَّ لا نجعل المنهج المدرسي ملتصقاً بهم، وأشعر أننا نحتاج إلى أن نخصص جزءاً لما هو ليس معيارياً في البناء التقليدي؛ حتى يكون بنداً تقييماً مستقلاً، ولا بد أن نحرص ألا يخضع هذا البند إلى التقنين.

إن شبكة تعلم الصورة الكبيرة Big Picture Learning مثال قوي لكيفية ربط المدارس بالعالم من حولها، ودمج البرامج الأكاديمية والمهنية يمكن أن يؤدي إلى مستويات مرتفعة للغاية من المشاركة والإنجاز. تعلم الصورة الكبيرة شبكة متنامية من أكثر من مئة مدرسة حول العالم، أسسها عام 1995م إليوت ووشور Elliot Washor ودينيس ليتكي Dennis Littky، وهما اثنان من التربويين شاركا في جوانب تنمية المدارس والبرامج والسياسات كلها، والفكرة الأساسية وراء مدارس الصورة الكبيرة هي أن التعليم مسؤولية الجميع في المجتمع؛ تتبنى مدارس الصورة الكبيرة ذلك النوع من التعلم الذي لا يحدث إلى عند السماح بتوسيع حدود التعليم لتتجاوز أسوار المدرسة، فيقضي الطلاب أوقاتاً طويلة يعملون في المجتمع تحت إشراف معلمين متطوعين، يتعلمون في مواقف الحياة الحقيقية.

يقول ووشور: «يجب على المجتمعات أن تبني مدارسها وأحياءها معاً، فتتضمن أقسام البلدية معاً لإصلاح المدارس الثانوية، وتشيد أماكن التعلم التي تحتاجها المجتمعات؛ إذ إن إنشاء أماكن التعلم المجتمعية الحقيقية هي السبيل الوحيدة أمام المدن لإعادة الحس المكاني للمدارس، ومنح الطلاب الشعور بأن لهم مساهمة مهمة في مجتمعاتهم»⁽¹⁰⁾.

وعن قيمة هذا، يقول ووشور وصديقه القديم تشارلز موجكوفيسكي Charles Mojkowski في كتابهما تعلم التعلم⁽¹¹⁾ Leaving to Learn:

«تعجز عمليات التلقين والقياس التقليدية عن الوصول بالطلاب كافة إلى درجة الكفاءة، ولا يصل إلى الحرفية والإتقان إلا القليل؛ إن جذب اهتمام الطلاب في المدرسة، وجعلهم متعلمين منتجين حتى يصلوا إلى التخرج، يفرض على المدارس تقديم خبرات كثيرة يمرُّ فيها الطلاب كلهم، بمواقف تعليمية خارج المدرسة؛ يحتاج الطلاب كلهم، أن يتركوا المدرسة -من وقت إلى آخر وبانتظام وبصفة مؤقتة بالطبع- حتى يظلوا في المدرسة، ويواصلوا تعلُّمهم بإصرار، ولتحقيق ذلك ينبغي على المدارس أن تسقط الجدران التي تفصل التعلُّم الذي يكتسبه الطلاب، أو يمكن أن يكتسبه داخل المدرسة عن التعلُّم الذي يكتسبونه، أو يمكن أن يكتسبوه خارجها، ولا بدَّ للتعلُّم في المكانين والسياقين أن يندمجا بصورة طبيعية»⁽¹²⁾.

يشرح المؤلفان بعد صفحات عدة سبب اعتقادهما بأهمية هذا المدخل:

«يرى أغلب الصغار أن المدارس ليست ذات فائدة كبيرة؛ بل إن كثيراً منهم يعدُّون المدرسة بيئة تعلُّم سلبية؛ فالمدارس تفشل في مساعدة الطلاب على أن يكونوا أكفاء في مهارات الحياة المهمة، بل إنها تقدم صورة مشوهة للتعلُّم، وكأنه لا يتم إلا في المدارس منفصلاً عن العالم الحقيقي، تنظمه مجالات علمية، وأجراس مدرسية، ويقاس باختبارات اختيار من متعدد، واختبارات تحريرية، وبالمدارس قوائم طويلة من القواعد المكتوبة وغير المكتوبة التي تخلق الدوافع الفطرية للتعلُّم داخل الناس، وتقيد خياراتهم بشأن ما يريدون التفوق فيه، وامتى يمارسونه، وممن يتعلمون، وكيف يتعلمون، فلا عجب، أن يُحرم كثير من الشباب المبدع المغامر التعلُّم المنتج، فهم يدركون أن البقاء في المدارس المتاحة لهم يعني التسرب من العالم الحقيقي.

حقق تعلم الصورة الكبيرة على مدار العقدين الماضيين سجل نجاح ضخماً، بوساطة منهج قائم على التعامل مع كل طالب على حدة والشخصنة والارتباط بالمجتمع؛ أول مدارس الصورة الكبيرة كانت مركز العاصمة الفني والمهني الإقليمي في بروفيديانس في رود آيلند، وكانت أول دفعة مكونة في أغلبها من أطفال أمريكيين أفارقة ولاتينيين، واجهوا صعوبات في التكيف مع البيئات المدرسية التقليدية. كان هؤلاء الأطفال على حافة التسرب لوظلوا في مدارسهم المعتادة، وكان معظمهم من بيوت يُعد التعليم الثانوي لديها حلمًا بعيداً، وبعد أربع سنوات، بلغت نسبة التخرج لهذه الدفعة الأولى 96%، تم قبول 98% منهم في مراحل القبول بعد الثانوي، أما معدل التخرج من مدارس الصورة الكبيرة في الولايات المتحدة إجمالاً، فهو 92% في مقابل المتوسط القومي الذي يبلغ 66%»⁽¹³⁾.

يقوم الكتاب على مسلمة أساسية، وهي أن كثيراً من سياسات الإصلاح تتناول مشكلات التعليم من منظور مغلوط تماماً، ويتفق إليوت ووشور وتشارلز موجكوفيسكي على المبادئ والطرائق التي ينبغي أن تبنى عليها الحلول الحقيقية لتلك المشكلات، وثبتتها عملياً مدارس الصورة الكبيرة التابعة لهما.

روح عامة مختلفة

قرأت في الفصل الرابع عما يفعله جوهاريسون في التعليم البطيء. وتعد مدرسة ماثيو موس الثانوية في روشديل، التي تقع على بعد 35 ميلاً شمالي شرق ليفربول، نموذجاً بارزاً للتعليم البطيء، وتتصدر الموقع الإلكتروني لمدرسة ماثيو موس عبارة «نحن مختلفون»، فإذا ضغطت عليها أخذتك إلى البيان الآتي:

«إن ما يجعل مدرسة ماثيو موس مختلفة جداً عن غيرها من المدارس هو أجندة التعلم لديها، وقد يبدو غريباً أن أغلب المدارس لا تفعل ذلك، إذ يركزون على التدريس بافتراض أن التعلم سيأتي بعده، وقد ثبت مراراً أن هذا ليس صحيحاً، وكل من يسترجع خبراته المدرسية سيدرك أن المعلم دُرس له أشياء كثيرة، لكنه لم يتعلم حقيقة من هذه الأشياء.

في مدرسة ماثيو موس الثانوية، أردنا أن نضع المتعلم في مركز ما نفعل، فأخذنا في البحث عن كيفية مساعدة الطلاب على أن يكونوا متعلمين فعالين، وسيحقق المتعلمون الفعالون السعادة والنجاح في الحياة؛ لأنهم يعتمدون على أنفسهم، ويستطيعون التكيف مع المواقف الصعبة، سيعرفون كيف يتصرفون في المواقف التي لا يعرفون كيف يتصرفون فيها»⁽¹⁴⁾.

في قلب أجندة التعلم لمدرسة ماثيو موس برنامج يسمى عالمي، يتكون من أربع جلسات مزدوجة أسبوعياً، وقد قال لي جو: إنه تعلم قائم على المشروعات إلى حد كبير؛ فهو يركز على العمليات، ويقوم فيه المعلمون بأدوار الميسرين والمرشدين والمتدربين، وهم أحياناً يقفون أمام الصف ويقومون بالتدريس الفعلي، ولكن في أحيان أكثر، يقوم الصغار بتوجيه العملية داخل الصف؛ كان أحد المشروعات التي أداروها هناك يتناول شجرة العائلة، فوضع كل شخص شجرة عائلته، وجاء علماء أنساب ليدعموا هذه العملية، ولينتقدوا ما وضعه الطلاب من أشجار عائلية. بعدها ركز كل واحد على جانب من شجرة العائلة يجذب انتباهه ويتبعه؛

كان أحد الصغار شديدَ الاهتمام بكرة القدم، وكان كبير المعلمين يُجري محادثة تعليمية مع هذا الطالب، فسأله: أخبرني، ما فائدة هذا؟ أنا متأكد أنك تحب كرة القدم، لكن ما فائدة هذا؟ توقف الطالب للحظة، وفكر فيها ملياً، وقال: عندما أَلعب كرة القدم، أشعر أنني مختلف تماماً، عند هذا وابتك كبير المعلمين الفكرة التي أدت به إلى وضع مشروع عن علم النفس الرياضي، والتعمق في المجال؛ هذا النوع من العمق لا يمكن لأي منهج مدرسيّ معياري أن يبلغه؛ لأنك لن تستطيع مطلقاً أن تجد عدداً كبيراً يهتمون به.

إنهم يبدون دائماً حرصاً شديداً على إيجاد إحساس عميق بالهدف في هذه المشروعات، ويستعينون بهيئات خارجية تعامل الأمر بوصفه عملاً حقيقياً فيجدون أن طالبا ما في بعض الأحيان- لا يجد دافعه، قد يستمر هذا لعامين أو أكثر، لكنه مضطر إلى أن يواصل العمل فيه، وعندما يحدث ذلك، فإنه يثمر خبرة تعليمية قوية لهذا الشخص.

هذه الأشياء كلها، تستغرق وقتاً، فما يبدوون في إدراكه الآن أن النتائج منتج جانبي، وليست بؤرة الخبرة التعليمية ككل، لكن النتائج تتحسن وتتجاوز التوقعات، حتى إن الكليات تقبل طلاب مدرسة ماثيو موس بدرجات أدنى من غيرهم؛ لأنهم يعلمون أنهم يتعلمون بصورة أفضل من غيرهم.

معايشة الديمقراطية

تُدخل بعض المدارس طلابها في مستويات أعمق من الخبرة؛ ففي عام 1987م، أنشأ ياكوف هيشت Yaacov Hecht مدرسة في الكيان الصهيوني، يأتي كل قرار مرتبط بالمنهج المدرسيّ فيها بوساطة تصويت يشمل الطلاب والمعلمين وأولياء الأمور، كانت مدرسة هاديرا الديمقراطية أول مدرسة في العالم تسمى نفسها ديمقراطية⁽¹⁵⁾. أما اليوم، فيوجد مئات المدارس الديمقراطية في أنحاء العالم كلها، منها نحو المئة في الولايات المتحدة، بما فيها مدرسة بروكلين الحرة في بروكلين، نيويورك، والمدرسة الزراعية في سميرتاون، تينيسي، ومدرسة المبادرة الشبابية الثانوية في فيروكوا، ويسكنسون، وغيرها كثير.

يقول ياكوف في عرض قدمه مؤخراً: «ما نقوله إن كل شخص يمكن أن يكون متفوقاً، إذا تركنا له حرية اختيار المجالات التي يطور فيها نفسه؛ فتحن نأخذ الطالب في التعليم الديمقراطي إلى خارج الصندوق، ونبحث عن المكان الذي يمكن أن يكون ناجحاً فيه»⁽¹⁶⁾.

يضع ياكوف العناصر الأولية لمدرسة الديمقراطية في التعليم الديمقراطي:

- اختيار مجالات التعلم: يختار الطلاب ما يريدون أن يتعلموه وطريقة التعلم.
- الإدارة الذاتية الديمقراطية.
- تركيز التقويم على الفرد، دون مقارنته بالآخرين، ودون اختبارات ودرجات.
- مدرسة ينمو فيها الأطفال من سن الرابعة حتى سن الرشد⁽¹⁷⁾.
- واصل ياكوف عمله فأسس معهد التعليم الديمقراطي، ومعهد مؤتمر التعليم الديمقراطي the Institute for Democratic Education and the Institute for Democratic Education Conference -IDEC الذي يضم تربويين من أنحاء العالم جميعها.

يعد جيرى مينز Jerry Mintz واحداً من الأصوات الرائدة الداعمة للعملية الديمقراطية في المدارس؛ فقد أنشأ مؤسسة المصدر التربوي البديل Alternative Education Resource Organization، وكان أول مدير تنفيذي للائتلاف القومي مدارس المجتمع البديلة، وكان عضواً مؤسساً مع ياكوف معهد مؤتمر التعليم الديمقراطي⁽¹⁸⁾. وأغلب المدارس الديمقراطية الأمريكية مدارس خاصة، لكن عدداً قليلاً منها مدارس تشارتر داخل نظام التعليم العام، ومع ذلك يعتقد جيرى أن هذه المدارس تبين اتجاه التغيير في المدارس العامة كلها.

قال لي جيرى: أعتقد أن أفضل طريقة لتغيير نظام المدارس العامة هو إنشاء نماذج خارجها، فإذا أخذت كاليفورنيا -مثلاً- وجدت أن بها عدداً كبيراً جداً من متعلمي المنازل، وأن كل منطقة تعليمية في كاليفورنيا أخذت، من باب الدفاع عن النفس، تنشئ برامج الدراسة المستقلة، وهذا تعليم منزلي؛ في كل منطقة برنامج للتعليم المنزلي بوصفه جزءاً من تعليم العام، وهذه هي الطريقة التي تؤثر بها البرامج البديلة في النظام.

ثمة نموذجان متعارضان في هذا المجال يرتبطان بطريقة الناس في النظر إلى التعلم؛ فالطريقة التي نتبعها هي أن الأطفال متعلمون بالفطرة، وهذا ما نؤمن بصدقه، وتعززه بحوث المخ الحديثة في كل خطوة، لكن النموذج الذي تعمل به المدارس في كل مكان تقريباً هو أن الأطفال كسالى بالفطرة، ولا بد من إجبارهم على التعلم، فما يحدث في مسار يمتد سبع أو ثماني سنوات هو أن يتحقق هذا التصور من تلقاء نفسه، فإذا أجبرت الأطفال على تعلم أشياء لا يهتمون بها لسبع أو ثمان سنوات، خَبَت قدرتهم الفطرية على التعلم بعد مدة.

يسافر جيرري كثيراً ليعرض عملية التعليم الديمقراطي، وبرغم أنه ظل يفعل ذلك لأكثر من ثلاثة عقود، فما يزال يجد أن كل تجربة محفزة وملهمة. «ما زالت قوة التجربة تصدمني -وعلى سبيل المثال- ذهبت إلى مدرسة عامة، طلابها في خطر، تقع في لونغ آيلند؛ كانت هذه المدرسة تبدأ بعد انتهاء المدارس الأخرى، فكان الأطفال يأتون في الثالثة والنصف، ويخرجون في السابعة والنصف، وكانوا يشعرون أنهم ألقى بهم في هذا الشيء، أما ما حدث عندما بدأت أعرض العملية الديمقراطية فكان شيئاً لافتاً للنظر؛ في أول الأمر كنت أرى مدى تشكك الطلاب بوساطة لغة الجسد، وبعد أن انتهينا، كانوا قد ارتبطوا ارتباطاً شديداً بها؛ قال أحد الأطفال: إنه يعتقد بضرورة السماح له بارتداء قبعة في المدرسة، فرد عليه معلم بأن طلبه معقول، لكنه ينتهك إحدى قواعد المنطقة التعليمية. قال المعلم: إن الطفل إذا أراد ذلك، فعلى المعلم أن يذهب إلى مجلس إدارة المدرسة، ويحاول تغيير تلك القاعدة لمجموعته، ويمكنك أن تلمس ما حدث من تغيير في العلاقة بين المعلمين والطلاب بمجرد عقد ذلك اللقاء؛ فعلى نحو مفاجئ، كان الطلاب والمعلمون على الجانب نفسه، ليسوا على طرفي مواجهة، وبعد أن أتممت تلك الجلسة، قررت المدرسة عقد لقاءات أسبوعية تطورت إلى برنامج ديمقراطي.

في نهاية ذلك العام، كانت المنطقة التعليمية تنوي إجراء خفض الإنفاق المعتاد، وكانوا ينون خفض تكلفة بعض الأشياء في المنطقة كلها، وكان الأطفال الوحيدون الذين ذهبوا للاحتجاج على ذلك الخفض ينتمون إلى ذلك البرنامج الديمقراطي، لأنهم مكنوا. يعتقد جيرري بإمكان تحقيق تعلم غير عادي عندما يختار الطلاب ما يريدون تعلمه، وتكون البيئة المدرسية مفعمة بالمغامرة والاستكشاف لا بالقيود. حتى إن جيرري وضع عنواناً لأحد كتبه يقول: لا واجب منزلي

والفسحة طول اليوم No Homework and Recess All Day. «أدرت مدرسة لسبعة عشر عاماً، قائمة على الديمقراطية الكاملة، وليس بها حضور إجباري، وكان أغلب الأطفال من ذوي الدخل المحدود، ولم تكن المصروفات الدراسية تمثل سوى ربع دخل المدرسة، ويعتمد الباقي على التبرعات. وكان في تلك المدرسة قاعدة صارمة: إنك لا تستطيع أن تبقى في المدرسة بعد الدوام إلا أن تكون متميزاً، فكان الطلاب يقاتلون من أجل حقهم في البقاء في المدرسة بعد الدوام، وكانوا يبقون هناك ما دام هناك عضو هيئة تدريس راغب في البقاء، وأعلنت قاعدة أخرى وهي عدم وجود عطلة بسبب سقوط الثلج على الإطلاق؛ كانوا يعرفون أنني أعيش في المدرسة، وأنهم لو جاؤوا في أي وقت سيكون ثمة مدرسة، وقد نجح الأطفال في إجراء تصويت يمنع بعض الإجازات، وحاولوا إجراء تصويت يمنع الإجازة الصيفية، وتوصلوا إلى قرار بالحضور ولو مرة أسبوعياً حتى تقول لهم الإدارة إنه غير مسموح لهم بالحضور، هكذا كان موقفهم من المدرسة؛ يتعذر على الناس فهم هذا لأنه غرس فيهم تصور أن المدرسة شيء يكرهه الأطفال». يعتقد جيري أن العملية الديمقراطية يمكن أن تصلح في أي بيئة مدرسية بصرف النظر عن عمر الطلاب. وقد تأكد هذا الاعتقاد بالنسبة إليه عندما طلبت منه مدرسة في نيو جيرسي عرض هذه العملية أمام أطفال مرحلة ما قبل المدرسة.

«أخذت أقول في نفسي وأنا أقود السيارة إلى تلك المدرسة: مدهش! إن أكبر طفل هناك في الخامسة من عمره، فهل سينجح الأمر؟ كنت متأكداً أنني سأضطر إلى أن أقدم لهم أجندة أو شيئاً نحو هذا، جلسوا جميعاً في دائرة، وبدأت أشرح لهم أنه يوجد شيئان رئيسان ينبغي الحرص عليهما في أي لقاء ديمقراطي؛ الأول شيء تعتقد أنه مشكلة في المدرسة، والثاني شيء تعتقد أنه فكرة جيدة، وما إن خرجت هذه الكلمات من فمي، حتى رفع الطلاب جميعاً أيديهم، كان أمراً مذهلاً. قالت طفلة صغيرة في الرابعة من عمرها: إنها سمعت بشيء اسمه الكافيين في الشوكولاتة، وربما يكون من الأفضل منع الناس من تناول الشوكولاتة بعد الظهر. تم التصويت على ذلك الاقتراح وأجيز. وقال طفل آخر: إنه ربما كان من الخطأ أن يخرج الأولاد من البيت عندما يعانون البرد، ناقشوا ذلك وأجيز».

من الواضح أن طبيعة النقاش-والمنهج المدرسيّ والسياسات المتبعة- تختلف اختلافاً كبيراً حسب العمر، ومع ذلك يؤمن جيرى إيماناً عميقاً أن للعملية الديمقراطية دوراً في كل مدرسة على كل مستوى: «لا يمكنك تغيير قوانين الولاية، ولا يمكنك تغيير القوانين الفيدرالية، لكن هذا كله ينطبق على المدارس العامة؛ فمن أكبر الثورات التي يمكن أن تحدث أن يتبع المعلمون أفراداً العملية الديمقراطية في صفوفهم؛ المشكلة في أغلب المدارس أن أغلب الناس يجهلون كيف ينفذون شيئاً كهذا؛ لأنهم لم ينشؤوا عليه، وليس له برامج تدريبية. لدينا دورة تعليمية على الإنترنت لمن يبدؤون مدارس جديدة، وفي بعض الحالات، لمن يريدون تغيير مدارسهم الحالية».

يرى جيرى أنه لا يوجد سوى عقبة حقيقية واحدة أمام هذا النوع من التغيير «إذا لم تتق أن الأطفال متعلمون بالفطرة، فلن تصل إلى شيء».

أسس المنهج المدرسيّ

للمجالات العلمية التي ذكرتها هنا كلها، أماكن متساوية في مراحل التعليم جميعها: من مرحلة ما قبل روضة الأطفال حتى نهاية المرحلة الثانوية وما بعدها، وبالطبع ينبغي الاهتمام بها على نحو يراعي أعمار الأطفال ومستويات نموهم، وبخصوص عملية الشخصية، فمن الضروري أيضاً أن يتمكن الطلاب في مرحلة النمو من التركيز على بعض المجالات العلمية أكثر من غيرها، وهذا هو معنى الاختيار والتنوع⁽¹⁹⁾.

إذا كان للمدارس أن تفي بالأغراض الأربعة التي عرضناها، والإمكانات المتنوعة التي تستمد منها، فمن الضروري أن يتوافر في المنهج الدراسي بصورة كلية السمات الآتية:

- **التنوع Diversity:** ينبغي أن يكون مصمماً بصورة عامة ليغطي أنواع الفهم كلها، التي نريدها للطلاب كلهم، وأن يتيح الفرص المناسبة لهم بوصفهم أفراداً لاكتشاف أوجه قوتهم واهتماماتهم.
- **العمق Depth:** ينبغي أن يتيح اختيارات مناسبة حتى يتمكن الطلاب من السعي إلى تحقيق اهتماماتهم، في مدة نموهم، بالعمق المناسب.

• الدينامية Dynamism: ينبغي أن يصمم المنهج الدراسي ليسمح بالتعاون والتفاعل بين الطلاب من أعمار مختلفة والمعلمين من تخصصات مختلفة، وينبغي أن يبني جسوراً مع المجتمع الأوسع، وفي أثناء ذلك يتحوّل ويتطوّر.

إحدى القوى التي يمكن أن تخلق تنوع المنهج المدرسي وعمقه وديناميته، هي القياس المغلوط، لا سيّما متطلبات الاختبارات المقيّنة، وهذا هو موضوعنا الآتي.